الجنّة التي نَقَلتْها سيّارةُ الإسعاف

لينا الحاج معلاّ

(١)

في إحدى شرفات ذلك المقهى الصيفيِّ المكشوفِ والمُطلِّ على البحر جلس سميح البُدَيْني وقد راحت نسائم الصباح الباكر تلطم وجهه وتبعث في حناياه مشاعرَ هي مزيجٌ من الانتعاش ومن الرغبة في النوم، بعد أن أمضى الليلة الفائتة ساهراً حتى مطلع الصبح من جرّاءِ أرقٍ استبدَّ به.

أمامه كانت النوارس تعلو وتهبط لتمسَّ الماءَ بأجنحتها في صخبٍ كأنّه صدى شجارٍ بعيدٍ غير مفهوم. وعلى مبعِدة منها كان ثمّة زورقان يتهاديانِ على صفحة الماء ليضيفَ صوتُ مُحَرِّكَيهما المتلاشي صَخباً بعيداً، كأنّه طيفُ صَخَبٍ، إلى صخبِ النوارس اللاهية أو المتشاجرة...

ولو استثنينا أصواتَ حركة النُّدُلِ وهم يُعدُّون العدّةَ لاستقبال هذا الصباح الجديد، لأمكننا القول إنّ صخب النوارس وزورقي الصيدِ كان الصوتَ الوحيدَ المهيمنَ على ذلك المشهد. ولو أسقطنا من اعتبارنا وجودَ رجلين آخرين يجلسان على مبعدة من سميح البديني وعند طاولتين منفردتين، لأمكننا اعتباره الوحيدَ في هذا المشهد.

ويبدو أنّ المشهد برمّته قد استحوذ على انتباههِ لفترة من الزمن، ثم سرحت عيناه وغابتا بأنظارهما إلى البعيد.

(٢)

على حين غرّة، وفيما كان يرتشف قهوته، تراءى له أنّه لا يزال يرتدي منامته، وأنّ شخصاً قد خرج من الماء أمامه، كقذيفةٍ شاقوليةٍ من أعماق البحر، حتى إذا ما تساوى مع مستوى نظره مَدّ في اتِّجاهه يداً استطاع أن يلمح فيها، ولو عن بُعدٍ، مسدَّساً أسود. إنّها تهيُّؤاتٌ، ولا شكَّ، يعرضها الدماغ البشريُّ حين ينال منه الإجهاد والإرهاق. ولكن، خُيِّلَ إليه أنّه لمح ومضاً عند فوهة المسدّس أعقبه صوتُ طلقٍ ناريٍّ مكتوم. بل إنّه أحسّ فعلاً بألم خارق يفترس الجانب الأيسر من صدره. وتلوّى من الألم، وتكوَّر على نفسه فيما يشبه الاحتضار، وكادت روحه تفيض. بَيْدَ أنّه وفي غمرة الألم المميت حانت منه التفاتة إلى قميصه. لم يكن ثمّة أيُّ أثرٍ لثقب أو دماء، فاختفى الألم فجأة كما كان قد بدأ. نظر حوله فرأى الرجلين والنادل البعيد في أماكنهم، ولم يكن يبدو على أيٍّ منهم أنّه شاهد أمراً غير طبيعيّ. إنّها تهيّؤات، إذن، كما حدس. ولكنّ الألم كاد يقتله فعلاً. كان قد شارف على الموت بكلّ ما للكلمة من معنى. وحار في إيجاد تفسير.

(٣)

استردّ رباطة جأشه، فأنهى ارتشاف قهوته وقرّر العودة إلى البيت علّهُ يفوز ولو ببعض النوم. عندما وصل إلى الحيِّ الذي يقطنه فوجئ بوجود حشد كبير من النّاس أمام مدخل المبنى الذي يسكن إحدى شققه. لا بدّ أنّ مكروهاً قد وقع. كانت ثمّة سيّارة إسعاف أيضاً، وهذا ما جعله يؤكد لنفسه أن أحد جيرانه قد تعرّض لكارثة من

في العدد القادم:

أحمد خلف

محمد منصور

مصطفى الكيلاني

برايتن برايتنباخ

عبد الحق لبيض

صبري حافظ....

و آخرون

غير شك. فحثَّ الخُطى مُسرعاً ليستطلعَ الأمرَ، وعندما تنكبّ طريقه وسط الحشد ليصل إلى مدخل المبنى استوقفه شرطيٌّ عند المدخل، وطلب منه الابتعاد. صاح سميح البديني:

– ولكنّني أقطن في هذا المبنى.

فاستدار الشرطيُّ ونادى رجلاً كان يتفحّص المدخلَ كَمَنْ يبحثُ عن شيءٍ مُحَدَّدٍ قائلاً:

– سيِّدي المُقَدَّم. يقول هذا الرّجل إنّه أحد سكّان المبنى.

اقترب المقدّم بسرعة من سميح البديني بعد أن طلب من الشرطيِّ أن يسمح له بالدخول، وعاجله بقوله:

– هل تعرف المغدور معرفة وثيقة؟

قال سميح البديني:

– مَنْ هو المغدور أوّلاً؟

– إنّه يُدعى سميح البديني. جاركم في الطابق الثالث.

استبدّ بسميح البديني ذهول عارم، لكنّه استجمع هدوءه وقال للمقدّم:

– لا بُدَّ أنّ هنالك خطأً في الموضوع، فأنا سميح البديني، وأنا فعلاً أقيم في الطابق الثالث!

قال المقدّم بهدوء الواثق من نفسه:

– أتمنّى ألاّ تكون ثَمِلاً. أمّا الاسم فنحن واثقون من ذلك، وأمّا الطابق فسأريك إيّاه. تفضّل معي.

وقاده المقدّم إلى الطابق الثالث، ففوجئ سميح البديني بباب شقّته مفتوحاً على مصراعيه وبوجود عدد من الرِّجال بداخلها كان بعضهم منهمكاً في التقاط البصمات هنا وهناك. وعلى الأرض كانت ثمّة جثّة مغطّاة بملاءةٍ بيضاءَ مُلطَّخَةٍ ببقع من الدماء. فتل رأسه وشعر بدوار عجز معه عن فهم ما يجري. مَنْ هو هذا الشخص المقتول في شقّته؟ كيف دخل؟ ومَنْ قتله؟ ولماذا؟ مَنِ اكتشفَ الجثّة؟ وكيف؟ ولماذا شقّته بالذات؟

(٥)

لم ينقذه من ذهوله الشديد سوى صوت المقدّم الذي كان قد جثَا وراح يرفع الملاءة عن وجه الجثّة قائلاً:

– هذا هو سميح البديني... هل تعرفه تمام المعرفة؟

صُعِقَ سميح البديني إلى درجة التيبُّس عندما رأى وجه القتيل الذي كان يُشبهه شَبَهاً عظيماً. أخذ طرف الملاءة من يد المقدّم ورفعها أكثر، فشاهد منامته التي كان يرتديها هو نفسه هذا الصباح قبل خروجه إلى المقهى. تذكَّرَ الرؤيا التي انتابته وهو ساهم في المقهى. ولكنّ ذلك كان وهماً، أمّا الآن فالحقيقة تقول إن ثمّةَ جُثَّةً ترتدي منامته وقد لطّختها الدماءُ، وإنّ المفرزة الجنائية تُحَقِّقُ في الأمر.

(٦)

قال المقدّم:

– ماذا قلت؟

صاح سميح البديني:

– لا أصدّق ما يجري. إنّه يشبهني حتى لكأنّه توأمي، وليس لي أخ توأم. وقُتِلَ في شقّتي!

قال المقدّم:

– دعك من هذا الهذيان وأجب على سؤالي الواضح والصريح: هل تعرف المغدور تمام المعرفة؟

صاح سميح البديني في انفعال:

– إنّها شقّتي، ومفاتيحها لاتزال في جيبي. يمكنكم التأكّد من ذلك. وسيشهد الجيران بصحّة ما أقول. أنا سميح البديني.

فصرخ المقدّم بأعلى صوته وقد نفد صبرُه:

– أَخرِجوا هذا المعتوهَ من هنا.

وعلى الفور تقدّم رجلان كانا داخل الشّقة وأمسكا بسميح البديني في إحكام، واقتاداه إلى الطابق الأرضيِّ ومنه إلى الشارع حيث دفعاه بشدّة إلى الأرض.

نهض. أجال الطَّرْفَ حوله في وجوه المحتشدين، ولم يتمكّن من التعرّف على أيٍّ منهم. أين جيرانه الحقيقيون؟ أليس ثمّة شخص واحد يعرفه؟

دَبَّتِ الحركة فجأة في الحشد، فقد أخذ رجال الشرطة في إبعاد الناسِ عن مدخل المبنى ليُفسحوا الطريقَ لرَجُلَيْن كانا قد هبطا منه وهما يحملان مِحَفَّةً وُضِعَت عليها الجثّة المغطّاة بالملاءة البيضاء، ولم يلبثا أن وضعاها داخل سيّارة الإسعاف التي انطلقت بعد ذلك مبتعدة عن المكان.

اللاذقية